إطلالة المؤرخ الشيخ سالم بن حمود السيابي على الشؤون العمانية في حوارات من الشاطئ البعيد

الحلقة السادسة

أيام على سرير الشفاء في مستشفى بيتش كاندي

حمود بن سالم السيابي

أحدثت الطائرة العابرة لساحل شوباتي فوق رؤوسنا دويا هائلا وبينما الرقاب مشرئبة تتابعها وهو تخترق سديم بمبي فتختفي عن الأنظار ويبعد صوتها رويدا رويدا ليبقى صوت الموج وصخب الناس في هذا الشاطئ الذي يمثل رئة بمبي ومنتزهها.

وعلى رشفات من شاي كرك نكسر به ضوضاء المكان بين يعوض به مرافقنا بشدور نقص النيكوتين في مزاجه حيث يضطر في حضور الوالد ليتوقف عن التدخين جلسنا نستعيد أجواء المرور العابر للطائرة لينطلق الوالد مترنما :

دول أحدثت عجايب أعما
ل تجلت ملاكها الكهرباء
فسفين تطير في الجو كا
لطير سراعا كأنها العنقاء
وتخوض الخضم كالحوت في
سير ولكن لها به سخرياء
ثم تطوي البلاد طيا وترتا
د النواحي ونفسها أثاء
تجعل البرق رايدا وسفيرا
وعليه تواصل الانباء
ربطت عالم الحياة فشرقا
ضمن غرب وهكذا الاجواء

امم في رقيها العجب العا
جب والاهتمام و الاحتفاء(١)

وفيما الأمواج تتكسر على الشاطئ غير آبهة بالدوي الذي احدثته الطائرة الهندية التي تحمل من الأقاصي البعيدة مشتاقين وعشاقا وشعراء الى الفردوس الهندي كنا نطيل النظر إلى إمتدادات الشاطئ في شوباتي بحثا عن بناية القنصلية العمانية التي تنتصب كشراع سفينة توشك أن تقلع، فيما الهند بصخبها وضجيجها تجتر ذكريات قرون من سيطرة قصر باكنجهام على هذه الدرة في التاج البريطاني وغيرها من الدرر وما يجب أن يستخلصه الشرق بشكل عام والشرق العربي بشكل خاص من عبر ودروس. يتساءل الوالد:

هل اعدت عواصم الشرق شيئا
بل عليها المعالم السوداء
تركت واجب الحياة إنتهاكا
وبه طال في رباها العناء

قلت للوالد ونحن نودع شوباتي المغسول بدوي أهم مخترع إنساني وأهم نتاجات ثورة العلم. لقد استوقفتني رسالة من بقايا أرشيفكم الذي تناثر بين حصون عمان ومقار سكناكم أن الأخ هلال بعث لكم رسالة من سمائل أثناء وجودكم في حصن بدبد يلتمس منكم الموافقة على أن ينفتح على العلوم العصرية التي أنتجت كل هذه الحضارة التي تتحسر عليها أنت في قصيدتك والتي لم ينعم بها الشرق بل ظلت حكرا على الغرب. وأضفت مخاطبا الوالد أن الانطباع الذي يستشفه القارئ لرسالة الأخ هلال أنها لم تكن الرسالة الاولى في مضمونها بل جاءت بعد طرق متكرر وملح للطلب وأن الأخ هلال يستشهد في رسالته بصديقكم الزعيم سليمان الباروني الذي طبقت شهرته الآفاق وذلك تقوية لحجته في السماح له بالدراسة وحملكم على الموافقة ولكن ربما كانت لكم وجهة نظر أخرى.

قال الوالد من أراد الله به خيرا يفقهه في الدين وهلال ملازم لخاله سعيد بن خلف في تلك الفترة ومجاورته للشيخ خلفان بن جميل. وقد عاش في بيئة علم لم تتوفر لأقرانه، وقد أرسلت إليه أثناء إقامتي في بدبد أن يلتحق بي ليكون بجواري ولكن خاله الشيخ سعيد بن خلف كتب إليّ أن هلال قد قطع شوطا مهما في الدراسة فلم أشأ أن أربك البرنامج الذي وضعه له خاله فصرفت النظر عن طلبه البقاء معي لأن مستقبله العلمي مقدم عندي على ما سواه رغم حاجتي له في تلك الفترة. كما أن الشيخ ابراهيم بن سعيد العبري قد توسّم في هلال إمارات واعدة حيث وقف الشيخ ابراهيم على بعض قصائده وكتاباته ومنها ما كتبه هلال تعليقا على تخرصات أحد الكتاب ويدعى الصاوي الذي تصدى صديقنا القطري احمد بن حجر في الرد على تلك التخرصات، وقد وقف الشيخ إبراهيم العبري على رأي هلال فاستحسنه، وقال لي إن هلالا ألقم الصاوي حجرا .

ومع كل تلك الاعتبارات رأيت أن سفره سيغيّر الاتجاه الذي سار عليه فأنا لست ضد الانفتاح على كل ماهو نافع للمرء وفيه صلاح لدينه ودنياه وأمته ووطنه. قلت للوالد على كل حال فإن الاخ هلال تسنم المجد من طرفيه فقد كسبه الشرع كأحد علمائه، ولم يكن بعيدا عما يكتسبه الطالب في المؤسسات الأكاديمية العصرية إذ اخترقها بهمته العالية فانفتح على مكتبة المثنى ببغداد لينتقي أفضل نتاجاتها .ولم تكن القاهرة وبيروت وغيرها من مصادر الإشعاع بعيدة عنه، فهو اليوم غرسك اليانع وحصادك الوفير .وقد اختطّ نهجك وترسم خطواتك وسار على دربك فهو سر أبيه. ويعد هلال اليوم من العلماء الفقهاء ومن طبقات الشعراء الكبار بشهادة أمير البيان الذي كرسه كأحد اهم الاصوات الشعرية التي تصدح في وادي عبقر فتحتكر العبقرية، وهو نسابة مثلك أيضا كما أنة هلال يدير باقتدار أهم مؤسسة إعلامية في البلد وهي جريدة عمان كأحد رجالات الإعلام وقد حولها بهمته العالية الى منتدى يرتاده الساسة والشعراء وتتصارع فيه الافكار والثقافات، وبذلك تكاملت فيه شخصية العالم بحكم المحصلة المعرفية، وشخصية السياسي والإعلامي بحكم الرسالة التي يؤديها لوطنه بالكثير من المهنية والاحتراف .

قال الوالد ذلك صحيح، ولكن مشيئة الله فوق كل مشيئة فلم يقدر لبدر أن ينفرد عن أخيه هلال فاختارا السفر معا لدول الخليج حيث زارا البحرين والكويت ليطلعا على المجالات المتاحة في الخارج للالتحاق بالبعثات التعليمية هناك وذلك في ستينيات القرن العشرين، ولربما لم يتمكنا من الالتحاق بالمعاهد هناك لأنها تفرض بعض الإشتراطات الواجب توافرها، ولربما لم تناسبهما الأجواء التعليمية السائدة، ففضلا العودة ليلتحقا بمسجد الخور بمسقط ولينهلا العلم على يد العالمين الجليلين الشيخ احمد بن حمد الخليلي والربيع بن المر المزروعي. ولعلها من محاسن الصدف ان يكونا قريبين منا وبمقدورهما ان يكتسبا بقية العلوم بجهدهما الذاتي.

وبقدر ما شقّ الاخ هلال طريقه على خطى والده لم يكن الأخ بدر بعيدا عن ذلك بل تكررت فيه شخصية والده فورث عنه الحكمة والحنكة بل وتقلد الولاية كوالده في السيب ومطرح وقد أدار السيب من نفس الحصن الذي جلس فيه والده في خمسينيات القرن الماضي وكانت المدرسة السعيدية التي لم يقدر لهلال أن يلتحق بها وجدت متسعا لبدر في مقاعدها وبين طلابها فامضى بها عاما واحدا. ثم سنحت الفرص في النهاية لبقية الأولاد حيث عارفنا لهم إسماعيل الرصاصي والي مطرح وناظر المعارف في ذلك الوقت ولم يقصر في ذلك إذ إستجاب فأدخل أولادنا.